أثر لسانيات دي سوسير فيما تلاها من مناهج ونظريات

الدكتورة: فوزية دندوقة
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
محمد خيضر– بسكرة

الملخص:

نسعى من خلال هذه المداخلة إلى التأكيد على أن دي سوسير نبع لا ينضب للنظريات اللسانية التي جاءت بعده، فهو بحق أب اللسانيات؛ لأن كثيرا من القضايا اللسانية التي تلته كانت قد ولدت من طرحه، على أننا ندرك أن كلا من هذه النظريات والاتجاهات اللسانية قد وجهت اهتماماتها نحو قضايا لم يكن غيرها يحفل بها، وقد اكتفينا هنا بأهم النظريات، والتي عدت مدارس قائمة بذاتها، لأن المجال لا يتسع –دون شك– للإشارة إلى كل ما استفاد من المبادئ السوسيرية.

تمهيد:

كانت الدراسات اللغوية السائدة في القرن (19) دراسات تاريخية، تدرس اللغة من حيث تطورها، وتغيراتها خلال التاريخ، أو خلال حقبة زمنية معينة، لكن ذلك لا يعني أن هذا القرن لم يشمل بعض التطلعات لمعالجة اللغة بطريقة تختلف اختلافا جذريا عما عهد خلال وقت طويل من عمر الدراسات اللغوية، فقد تولدت عن أقطابه اللسانيين ملاحظة تدل –وبشكل واضح– على إدراكهم المبكر لما سمي فيما بعد بالمنهج الوصفي[1]،

الذي ظل استعماله في تلك الفترة استعمالا بسيطا، إلى أن جاء العالم اللغوي السويسري (فردينان دي سوسير)، وقلب واقع الدراسات اللغوية، وغير مجراها، بدءا بعده اللغة مجرد أشياء قابلة للدرس، وخاضعة لمحك التجربة، لكنها تختلف في نظره عن كل الأشياء الطبيعية الأخرى، التي يمكننا لمسها، ورؤيتها، كالقلم والمحفظة والكتاب ...الخ[2].

إذا فالظواهر اللغوية في رأي سوسير أشياء ذات طابع خاص من النوع الذي أطلق عليه مؤسس علم الاجتماع (إميل دوركايم) الوقائع الاجتماعية من حيث تأثير كل منها على الفرد، ورسوخها في الذاكرة الجماعية للمجتمع.

اللسانيات الأوروبية:

يجمع كثير من الباحثين على أن جملة من المبادئ اللغوية التي ألقاها " فردينان دي سوسير" على طلابه في جنيف هي حجر الزاوية، ونقطة الانطلاق، لا في علم اللغة فحسب، وإنما في جميع ميادين الدراسات الإنسانية، حيث استطاع أن يؤسس مدرسة لسانية حديثة، أصبحت تعد نموذجا رائدا للعلوم الإنسانية، تضارع العلوم الطبيعية والرياضية في خضوعها للمنهج العلمي المضبوط. يطلق على هذه المدرسة التي انبثقت من تعاليم "دي سوسير" اسم (مدرسة جنيف)، وهي المدرسة التي اكتسبت صورتها الأخيرة من العمل الذي قام به تلامذته، ولاسيما (شارل بالي) و(ألبار سيشيهاي). أما أبرز أعضائها الآن فهو (هنري فراي) الذي يعالج في عمله علاقات النظم.

وتتميز هذه المدرسة بنزعة قوية إلى الدراسات التي تعالج العنصر الانفعالي في اللغة، إيمانا منها بأن اللغة تتجلى بوصفها كلا منظما، ذا وظيفة اجتماعية مهمة، وهذا ما جعل الكثيرين يصفون لسانيات "بالي" بأنها انفعالية، وينشأ هذا الوصف من اعتقادهم بأن كل حدث من أحداث النطق يحمل طابعا شخصيا أو انفعاليا[3]. وقد تبنى "بالي" مبدأ دي سوسير في التمييز بين اللغة وظاهرة الكلام الفردي، وطوره من خلال نظرية (التحقيق)، ذلك أن كلمات اللغة عبارة عن مفاهيم افتراضية، تتصف بالتعميم المطلق، أما الكلام فمعني بالظواهر الملموسة. وتحول اللغة إلى كلام يؤدي إلى تحويل المفاهيم العامة إلى مفاهيم محددة ، أو محققة على أرض الواقع.

وتسمى جميع الوسائل التي تستخدم في اللغة لتحويل المفاهيم الافتراضية إلى مستوى الواقع بوسائل التحقيق[4]، وهي كثيرة، مثل أدوات الربط على اختلاف أنواعها، ضمائر الملكية، عملية الإسناد... فعندما نعود إلى كلمة (قمر) في المعجم، فسنجدها ذات معنى

معجمي عام، ولا تتحدد دلالتها الدقيقة إلا بانتظامها مع كلمات أخرى، كقولنا: (تضيء الشمس نهارا ويضيء **القمر** ليلا) لتدل بالنظر إلى علاقتها مع غيرها على كوكب القمر، وعلى الجمال في قولنا: فلان **كالقمر**، ولا شك من خلال هذا المفهوم أن المفاهيم الافتراضية والظواهر الملموسة عند بالي في ثنائية (لغة/كلام) هي نفسها البصمات المشتركة والاستعمال الفردي عند دي سوسير؛ لأن الفردية في استعمال الظاهرة اللغوية هو ما يجعلها متاحة للملاحظة، والاشتراك والعموم هو ما يجعلها أكثر تجريدا وافتراضية.

بعد ذلك جاء علماء حلقة براغ ليلتقطوا مشعل الدراسات اللغوية الحديثة الذي صب سوسير زيته، ونسجت المدرسة الشكلية خيوطه، فلئن كان زعيم هذه الحلقة هو "ماثيزيوس"، فإن المحرك الأساسي لها هو مؤسس المدرسة الشكلية الروسية نفسه (جاكبسون)، الذي ذهب أولا إلى براغ كملحق ثقافي، ثم سرعان ما أدرك أن المناخ السائد في وطنه الأصلي سوف ينتهي بخنق نظرياته المستقلة، فأخذ ينفث دعوته في الأوساط اللغوية، وجعل يطبق بعضا من مبادئ الشكلية على مشاكل الشعر التشيكي، فكُتب له النجاح في حلها. فضلا عن الأثر الكبير الذي تركه مؤلَف دي سوسير (محاضرات في اللسانيات العامة) على بزوغ نجم هذه الحلقة اللسانية، التي شرعت تعقد ندوات منتظمة، وتتوجها ببحوث في اللسانيات الوظيفية على وجه الخصوص[5].

ولعل ما يميز هذه المدرسة نظرتها إلى نظام اللغة الكلي بمستوياته المختلفة (الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية)، ودراسته دراسة وظيفية محضة، وهذا ما جعلها تختلف عما تلاها من اتجاهات لسانية؛ فهي تنطلق في وصفها للغة من الوظيفة؛ إذ ترى أنها نظام من الوظائف، وكل وظيفة نظام من العلامات(الشكل1)، في الوقت الذي يرى فيه دي سوسير بأنها نظام من العلامات(الشكل2)، ليصل الاثنان إلى العلامة كحد نهائي للغة[6] .

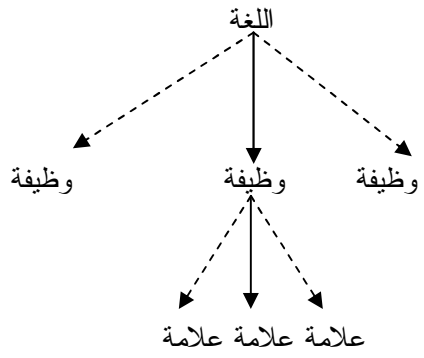

الشكل1

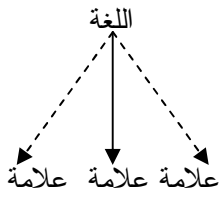

الشكل 2

أما المنهج الوظيفي والذي هو سليل المدرسة البراغية، فيتوخى فيه أندري مارتينيه الطريقة السوسيرية بالتأكيد على وظيفة الإبلاغ للغة، ويسعى إلى تبيان آثار ظاهرة في الملفوظات، تميز بين اختيارات المتكلمين، وقد لاقت وجهة النظر هذه صداها وخصوبتها البارزة في مجال علم وظائف الأصوات الذي سماه مارتيني بـــ "علم الأصوات الوظيفي"، لكنها لم تقتصر عليه بل تعدته إلى التركيب. أما الدلاليات فهي لا ترد في ذاتها في المبادئ، فمما لا شك فيه وجود صعوبة كبيرة لتوخي المبادئ الوصفية نفسها لعلم وظائف الأصوات، وعلم التركيب، والدلالة عند الوظيفيين ليست ميدانا مقدسا، من حيث إنه لا يُرجع إليه ألبتة كما يلذ لبعض اللسانيين، وليست موضوع درس مفضل[7]، وذلك كان طريق دي سوسير في دراسة اللغة.

كما تميز الفكر اللغوي الدنمركي بعد ذلك بما تبنته مدرسة كوبنهاجن من مبادئ سوسيرية، وصبغها صبغة معاصرة، والمعروف عن أصحاب هذه المدرسة أنهم حاولوا إحداث ثورة عارمة على الأساليب القديمة لدراسة اللغة، بإضفاء الصبغة العلمية على دراساتهم اللغوية، وكسْوِها بمصطلحات غريبة، وصياغة عناصر اللغة في رموز جبرية، وتراكيبها في معادلات رياضية، لكن وعلى الرغم من هذه الثورة على الأساليب القديمة في دراسة اللغة إلا أن أفكار دي سوسير هي اللبنة الأساسية لأفكارهم، مع ما بين الطرفين من اختلاف واضح، في كثير من الآراء، فمثلا ما "كان يسمى نظاما، وما كان يسمى كلاما يطلق عليه عملية، ويكمن النظام تحت سطح العمليات اللغوية، كتيار مستمر تمر فوقه الذبذبات المختلفة، ويعتبر النص هو العملية"[8]، أما الشيء الذي لا خلاف فيه هو ضرورة "أن تكون النظرية اللغوية صالحة لوصف وتوقع أي نص ممكن في أي لغة،

بحيث تكون قابلة للتطبيق على أية لغة فعلية أو محتملة"[9]، وتلك هي الشمولية؛ أي الخاصية التي أرادها دي سوسير للسانيات.

كما أنه يرفض الفكرة التقليدية القائلة بأن الوقائع الإنسانية تختلف عن الوقائع الطبيعية، من حيث عدم وجود إمكانية في دراستها بمناهج دقيقة، ولا إخضاعها لتعميمات مطلقة، "لأنها وقائع منفردة و فردية، ويرى أنه لا بد من البحث عن تيارات وصفية عامة، لأنه إذا كانت كل عملية تنطبق على نظام ما، فإنها ستبدو عند التحليل، كما لو كانت مجموعة متناهية من العناصر التي تعود للبروز بصفة دائمة في توفيقات جديدة، وانطلاقا من تحليل العملية، فإن العناصر ستعود للتجمع في أنواع تتحدد طبقا لتناغم إمكاناتها التوفيقية، وتتيح الفرصة في نهاية الأمر لتقدير دقيق مستقصى لجميع هذه الإمكانات"[10].

لقد أثنى لويس هلمسليف على جهود دي سوسير الذي يعده المؤسس الأول للسانيات البنيوية، وعلى الرغم مما يبدو من إخلاصه العلمي لدى سوسير، إلا أن توجهاته العلمية واهتمامه بالمنطق الرياضي، ومعر فته الواسعة باللغات القديمة والحديثة، مكنته من صياغة لسانيات موسومة بالروح الرياضية، فكانت منظوميته الغلوسيماتيك إضافة نوعية للدراسات اللسانية المعاصرة. فاللغة لا يمكن في نظره فصلها عن الإنسان، فهي الأداة التي بفضلها يمكن صياغة مشاعره وانفعالاته وجهوده وإرادته وحالاته، فبها يمكن أن يؤثر ويتأثر[11]. وتتركز اهتمامات الألسنية حول مسالة البنية[12]، لهذا يتجاوز المستوى الفونولوجي ليهتم بمشكلات التعبير ووحدات المحتوى. فاللغة هي قبل كل شي ء شكل، وهي في آن واحد تعبير ومحتوى.

إن كثيرا من المفاهيم التي التقطتها هذه المدرسة من مبادئ دي سوسير أخذت مفهوما جديدا – كما سبق وأن أشرنا – "فاللغة عندهم تعد شكلا وليست جوهرا، إذ إن الشكل اللغوي مستقل عن الجوهر، ولا يمكن التعرف عليه ولا تحديده، إلا بوضعه في ميدانه الوظيفي، وبعبارة أخرى فإن الجوهر الذي لا يتمثل في بنية لا يعدو أن يكون هيوليا ضبابيا خاليا من القوام الفعلي"[13]، وقد استبدل هيلمسليف ثنائية الدال و المدلول بـــ(التعبير والمحتوى)التي يخضع كل مستوى منها لثنائية الشكل والمادة، كما يأتي[14]: شكل المحتوى – مادة المحتوى – شكل التعبير – مادة التعبير.

اللسانيات الأمريكية والبريطانية

ليس من العسير أبَدا أن نكتشف أن المقدمات النظرية للتحليل التوزيعي قائمة بشكل أساسي على مبادئ سوسير، فهي تشبه إلى حد كبير ما صاغه هذا العلامة من مبادئ، حيث ارتكز التوزيعيون بشكل واضح على مبادئ دي سوسير، وإن بدا لنا بعض الاختلاف بينهم وبينه، فليس ذلك إلا صبغة خاصة أرادها التوزيعيون لأنفسهم، ليتميزوا عمن سواهم،

– موضوع الدرس هو اللغة مقابلة بالحديث، وغالبا ما يطلق على اللغة لفظ القانون؛ أي أنها النظام الذي يحكم عملية الاستعمال الفردي (الكلام)، وهي تسمية لها صدى عملي ملموس، وقد كان سوسير قبل أصحاب المنهج التوزيعي قد أكد على أن موضوع اللسانيات (الدرس اللساني) بمختلف مناهجه هو اللغة.

– الآنية: يتسم هذا الدرس بالآنية، لأنهم بإزاء لغات منعدمة الكتابة، و ماضيها مجهول[15]، فالتوزيعيون انطلقوا في بداية الأمر من دراسة لغات الهنود الحمر، وثقافتهم التي لم تبحث أو تدون آنذاك[16] – كما سلفت الإشارة – وليست الآنية إلا المنهج الوصفي الذي اشتهر به دي سوسير، حيث إنه نادى إلى دراسة اللغة دراسة آنية لأنها كفيلة بإعطاء نتائج مضمونة، وعندما يفرغ الباحث منها له أن ينتقل إلى الدراسة التاريخية التي تتم وفق امتداد زمني طويل، قد يحول بين الدارس وبين تحقيق مراميه بشكل أفضل.

– "تتألف اللغة من وحدات متفاصلة تفرزها عملية التقطيع، ويقدم سوسير في هذا المجال رؤية شاملة حول العلامة اللسانية، وطبيعتها وعلة وجودها.

– تؤلف كل لغة نظاما مخصوصا، وهو ما يقابل الاعتباطية عند سوسير، فموضع الكلمة في البنية محدد بعلاقاتها مع الكلمات الأخرى، ومن هذه العلاقات تنشأ قيمة كل كلمة[17].

– إن العناصر تتحدد بعلاقاتها داخل النظام، أي بعلاقاتها مع غيرها من العناصر اللغوية في التركيب الواحد، وهو ما يسميه سوسير بالعلاقات الركنية أو السياقية التي تجمع بين كلمات جملة واحدة، حيث تستدعي كل منها الأخرى، لتشكل سياق لغويا ذا دلالة، ولعلنا هنا واقفون على أهم مبادئ النظرية التوزيعية، حيث إنها ترى أن عملية التوزيع السليم الذي تأخذ فيه الكلمة قيمتها وبالتالي علاقات منطقية ولغوية مع بعضها البعض هي التي تصل بنا في النهاية إلى المعنى السليم، ومن هنا جاء اسم النظرية التوزيعية[18].

بعد هذا كله عرف الدرس اللغوي مرحلة جديدة من مراحل التحليل اللساني، وهو ما تمثل في مبادئ التوليد والتحويل التشومسكية، حيث انتقد نعوم تشومسكي البنيوية في قوله إن "اللسانيات البنيوية ليست إلا مرحلة، ولا غاية قصوى فيجب على اللغوي أن يبتكر مناهج جديدة لتحليل المستوى التركيبي، بل اللسان كله، هذا وقد أغفلت البنوك الكلاسيكية، ولم تول أي اهتمام لتلك الميزة البشرية الأساسية المتمثلة في قدرة الإنسان على حدوث جمل غير متناهية العدد، لم يسمعها، ولم يتفوه بها بما قط من قبل، وفي نفس الوقت قدرته على إدراك عدد لا متناه من الجمل اسمها ولا تفوه بها قط من قبل "[19].

وعلى الرغم من النقد الصريح والرأي الواضح الذي أبداه تشومسكي تجاه البنيوية التي أرسى دي سوسير دعائمها، فإنه قد التجأ إلى هذه الدعائم، واعتمدها في صياغة نظريته، ولو بوجهة نظر مختلفة، من ذلك مثلا ثنائية الكفاءة والأداء التي تشبه ثنائية (اللغة/الكلام) عند دي سوسير، فالكفاءة هي المخزون اللغوي الذي يمتلكه الفرد من قواعد ومفردات وغيرها، أما الأداء فهو الاستعمال الفعلي لهذا المخزون واستغلاله.

فضلا عن ذلك كله، فإن تشومسكي الذي مثلت نظريته منعطفا كبيرا وحاسما في تاريخ اللسانيات الحديثة، لم يستطع – وذلك في المرحلة الأولى من عمله على الأقل – أن يحطم النمطية التي امتازت به جميع التيارات البنوية، وهي اكتفاء التحليل اللغوي بالجانب الشكلي، لأن تحليل البنية اللغوية على مستوى السطح والعمق، لا يحقق بأي حال من الأحوال بلوغ الجانب الدلالي في التحليل اللغوي، فالبنية العميقة ليست إلى شكلا تجريديا ماثلا في الأذهان، ثم إن هذا المصطلح قبل كل شيء هو لهوكيت؛ واحد من علماء التحليل التوزيعي الذين راعوا مثلما راعى تشومسكي الصورة الظاهرية للتركيب وعلاقتها بصورة أخرى موجودة في ذهن مستعمل اللغة.

وفي اللسانيات البريطانية قام فيرث بإرساء مجموعتين من العلاقات، لابد أن ينظر إليهما المحلل اللغوي، وهما العلاقات الخارجية التي تتعلق بالموقف الذي ينتمي إليه النص، والعلاقات الداخلية التي تضم العلاقات الركنية والعلاقات الاستبدالية، فإن كان النوع الأول من العلاقات ونقصد الخارجية، لا يمت بصلة للسانيات دي سوسير التي قامت بدراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، مستبعدة علاقتها بأي شيء من العالم الخارجي لها، فإن النوع الثاني وهو العلاقات الداخلية نسخة مطابقة لما جاء به دي سوسير في جملة ثنائياته المشهورة (اللغة/الكلام)، (الدال/المدلول)، (الآنية/الزمانية)،

(المحور النظمي/المحور الاستبدال)، ولا شك ان هذه الأخيرة هي مقصد الحديث، فالعلاقات الركنية تمثل مجموعة العلاقات التي ترتبط فيها كلمات النص ارتباطا وثيقا يجعل كلا منها تستدعي الأخرى، والعلاقات الاستبدالية تمثل مجموعة العلاقات التي تربط جملة من الكلمات التي قد نتذكرها عند سماعنا لإحدى الكلمات الموجودة في العلاقات الركنية.

خلاصة:

يبقى هذا العمل في حقيقته مجرد إشارات بسيطة إلى الصلة القائمة بين الأقطاب المختلفة للسانيات، وهي دي سوسير باعتباره قطب الرحى فيها، والمركز الفاعل الذي انطلقت منه جميع التيارات والاتجاهات على اختلافها، واللسانيات الأوروبية ممثلة في شارل وبالي، وفيلام ماتيزيوس، وأندري مارتينيه، وهلمسليف، واللسانيات الانجليزية ممثلة في زيلغ هاريس وتشومسكي، وفيرث. فعلى الرغم من الاختلاف البارز بينها جميعا لمسنا شيئا من الاشتراك الذي جعلها تتبع من أصل واحد وتعود إليه.

الإحالات:

1- عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، دار هومة، الجزائر، 2001، ص 138

2- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص119، 120

3- ينظر: ميليكا افيتش، اتجاهات البحث اللساني، ص

4 - م ن/ ص

5- صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص 13 وما بعدها.

6 - أحمد مومن،اللسانيات النشأة والتطور، ص136

7- كاترين فوك، بيارلي قوفيك، مبادئ في قضايا اللسانيات، ص 44.

8- صلاح فضل، نظرية البنائية، ص93

9 - م ن/ ص ن

10- م ن/ ص 94

11- Hymsler , Prolerrnines a ume therie du – langag ed. Minuit Paris pp. 9

12- Hymsier: esrais linginstigues- ed: Minuit

13- صلاح فضل، نظرية البنائية، ص 95

14- م ن /ص ن

15- كاترين فوك، بيارلي قوفيك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ص 38

16- كارل ديتر بونتنج، المدخل إلى علم اللغة، ص 78.

17- كاترين فوك، بيارلي قوفيك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ص 39

18- م ن / ص ن

19- نقلا عن: خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص 104